

أبعاد نسق الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة عند عبد الوهاب عيساوي

Dimensions of Identity in Contemporary Algerian Fiction by Abdelwahab

Issawi

دليلة بوغديري*

رحيمة شيتير

مخبر المتخيل الشفوي

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

جامعة باتنة 1

جامعة باتنة 1

dalila.boughediri@univ-batna.dzrahima.chiter@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2025-11-18

تاريخ القبول: 2025-11-30

ملخص:

تهدف هذه الدراسة للوقوف على واقع الهوية وتداعيات صورة الآخر في الرواية الجزائرية المعاصرة من خلال ما قدمه الروائي المعاصر عبد الوهاب عيساوي انطلاقاً من روايته الديوان الإسبرطي الذي قدم رؤية نسقية عبّر عن خلالها عن مختلفاته تجاه الجزائر، تاريخاً ووطناً ووهوية سليبية.

ولما يكتسيه الموضوع من أهمية بالغة تجاه الكشف عن نسقية الكاتب والبحث في الهوية الوطنية عنده ارتأينا البحث في مضمرات هذا العمل مستعينين بالنقد الثقافي في محاولة للإجابة عن الإشكال الآتي: كيف بدا نسق الهوية وصورة الآخر في الرواية الجزائرية المعاصرة؟ الكلمات المفتاحية: نسق ثقافي؛ الهوية؛ رواية جزائرية؛ ديوان إسبرطي؛ عبد الوهاب عيساوي.

Abstract:

This study aims to examine the reality of identity and the implications of the image of the other in contemporary Algerian novels through the work of contemporary novelist Abdelwahab Issawi, based on his novel Al-Diwan Al-Isbarti, in which he presents a systematic vision that expresses his feelings towards Algeria, its history, homeland and lost identity.

Given the subject's great importance in revealing the writer's systematic approach and exploring his national identity, we decided to examine the implications of this work, using cultural criticism in an attempt to answer the following questions: How did the systematic approach to identity and the image of the other appear in contemporary Algerian novels?

Keywords: Cultural coordination; identity; Algerian novel; Diwan al-Isparti; abdelouhab-issaoui

مقدمة:

تعد إشكالية الهوية من بين أهم القضايا والمشكلات المطروحة إذ حظيت باهتمام الباحثين والنقاد لما تمثله من أولوية؛ لذا وجب الوقوف عليها أولا، والبحث فيها لحل إشكال الأنا والآخر وتمثيلات الهوية والصراع من أجل إثباتها انطلاقا من الأعمال الأدبية. وقد فرض سؤال الآخر الكشف عن هوية الأنا قبل الغوص في مضامين العمل الأدبي ومخرجاته الثقافية والاجتماعية؛ نتيجة ما يعانيه الفرد من تداخل هوياتي بين الدين والجنس والعرق والوطن، ولأنّ الرواية أصبحت لسان حال المجتمع تُعبر عما عجز الفرد التصريح به تصريحاً مباشراً، كان لزاماً الوقوف عليها واستنطاق بعض الأعمال للوصول لمفهوم الهوية في وقت تعددت فيه المفاهيم والمذلولات خاصة حين يقف الفرد أمام من يهدد وجوده. فتجده "يسارع إلى تأكيد ذاته باحثاً عن شيء أصيل كامن في أعماقه، يركن إليه، كي يحسّ بالثقة والأمان والقوة لمواجهة الخطر، وبذلك تتشكل الهوية في أدغال الذات حيث تتجسد عبر انتماءات ومكونات تتعلق بالجنس والعمر والطبقة الاجتماعية والموروث الثقافي الذي يشكل ركيزة أساسية فيها مما يجعل الآخر المعتدي يهتم بالقضاء عليها¹". ترى ماجدة حمود من خلال قولها هذا أنّ الهوية تتشكل انطلاقاً من الحسّ بالأمان والقوة لمواجهة الخطر، وهذا ما يقودنا إلى الوقوف على مفهوم الهوية من الجانبين اللغوي والاصطلاحي.

1- الهوية : الدلالة والمعنى:

إذا ما عدنا إلى مفهوم لفظة الهوية في اللغة فإنّنا "سنقف عند الفعل [هوى] ويهوى، واستهوته الشياطين هوت به وأذهبته، وسمعت بأذاني هوى أي دوى، و[هوى] يهوى

¹ إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية)، ماجدة حمود، عالم المعرفة، الرباط، المغرب، ط 2، 2003، ص:1

هوة وهواية وهواية والهوة ما بين الجبلين، والهوية بئر على وزن فعلة وهي أيضا البئر المعطلة²

وقد جاءت بالمعنى نفسه عند الزبيدي في تاج العروس حيث أورد: "وتصغير الهوة هوية، وكذا روى قول الشَّماخ.

ولما رأيت الأمر عرش هوية تسليّت حاجات الفؤاد بشمرا

والهوية هنا تعني البئر البعيدة.³ وقد جاءت بدلالة مختلفة عند صاحب القاموس المحيط بأنّ "الهويّ بالفتح للإصعاد، والهويّ بالضم للانحدار."⁴ والهوية عند بطرس البستاني في محيط المحيط هي "الهوية الحقيقية المطلقة المطابقة المتمثلة على الحقائق اشتمال النواة على شجر في العنب المطلق، الهوية السارية في جمع الموجودات ما إذا أخذ حقيقة الوجود لا يشترط شيئا ولا بشرط شيء وذلك منسوب إلى هو⁵، وقد جعل البستاني من الهوية حقيقة مطلقة ذات حضور مطلق في هذا الوجود للتاريخ الإنساني.

انطلاقاً من التعريفات اللغوية السابقة لمفهوم الهوية، فإننا نجدها تأتي بمعنى البئر المعطلة وهي أيضاً بمعنى الإصعاد والانحدار كما جاءت بمعنى مختلف عند صاحب محيط المحيط الذي جعلها حقيقة مطلقة متجذرة في الوجود الإنساني ولصيقة به.

أما معنى لفظة الهوية في الاصطلاح فهي تخضع للخلفيات الإيديولوجية والثقافية والدينية للأفراد وبذلك "الهوية مفهوم لا يقبل التعريف وذلك لأنّ كلّ تعريف هو هوية

² ينظر لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ج15، ص 374، 375.

³ تاج العروس، الزبيدي، تح عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، ج20، ص 345.

⁴ القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، تح محمد العرق سوسي، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط 6، 1998م، ص 1347.

⁵ قاموس محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة ناشرون، بيروت، لبنان، ط جديدة، 1987م، ص 9375

بحد ذاته، فالهوية مفهوم أنطولوجي وجودي يملك خاصية سحرية يؤهله في مختلف المقولات المعرفية، وهو يتمتع بدرجة عالية من العمومية والتجريد، تفوق مختلف المفاهيم الأخرى المجانسة والمقابلة له⁶ وقد جاء مفهوم هوية على أنه ذو بعد أنطولوجي فلسفي، لفظة هوية " كمصطلح ينتهي إلى المعجم الفلسفي الغربي منذ العصر الوسيط، يحيلنا في المنطق إلى مبدأ الذاتية، والهوية كمقولة ميتافيزيقية دالة على الماهية⁷ انطلاقاً من هذا المفهوم يتضح أنّ الهوية ذات أصول فلسفية تبحث في الحقيقة والوجود والربط بينهما. إنّ الهوية نتاج " صيرورة تاريخية تتولد عنها خبرات مشتركة يتبناها أفراد المجتمع، وتتضمن استمرارية الأمة، وخصوصياتها التي تتطور بالتحديث داخلها⁸ " وبذلك يأتي مفهوم المصطلح على أنه يحمل دلالات مختلفة بين أيديولوجية وثقافية من جهة، وفلسفية من جهة أخرى. هنالك من ذهب إلى حدّ جعل الهوية " حقيقة قارة وأساسية لا يعترها الشك، بينما يرى ما بعد الحداثيين أنّ الهوية أقرب إلى الوهم وأنه يصعب الاعتماد عليها كمفهوم"⁹ حسب ما سبق يمكن اعتبار مفهوم الهوية على أنه تلك الدلالات المختلفة التي تجمع بين فلسفية وتاريخية وأيديولوجية وثقافية لمجموعة ما، بينما هنالك من اعتبرها وهم يصعب الاعتماد عليه.

02- نسق الهوية والرواية:

1.2 مفهوم النسق:

قبل الوقوف على نسق الهوية كان حريا بنا التعرف على مفهوم كلمة "نسق"، ذلك اللفظ الذي تعددت مفاهيمه اللغوية والاصطلاحية فقد جاء في معجم العين بأن "النسق

⁶ الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، أحمد بعلبكي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص 157.

⁷ الهوية، عزيز العظمة وآخرون، تر: عبد القادر قنيني، المركز العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص 17.

⁸ المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، محمد العربي ولد خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ط1، 2003، ص 293.

⁹ شرفات للرؤية، العولة والهوية والتفاعل الثقافي، سعد البازغي، المركز العربي الثقافي، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 34.

من كل شيء ما كان على نظام واحد عام في الأشياء، ونسقته نسقا وتنسيقا، ونقول اتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أيّ تنسّقت¹⁰ ونجد تقريبا المعنى ذاته عند ابن منظور في لسان العرب فيقول: «والنّسق في كل شيء، ما كان على طريقة ونظام واحد قام في الأشياء وقد نسقه تنسيقا¹¹» أمّا من الناحية الاصطلاحية فإنّ أول من تطرق إلى مفهوم النّسق هو اللساني فرديناند دو سوسير¹² الذي يجعل من النّسق تلك العناصر اللسانية التي تكتسب قيمتها بعلاقاتها فيما بينها لا مستقلة عن بعضها¹³ أمّا كمال أبو ديب فيرى أنّ النّسق يشكل مجموعة تعطي للمتلقّي إحساسا بأنّه يطغى على كل نشاط فنيّ، فهو نسق ثلاثي متكرر من جديد لكنّه لا يمضي من تكراره بصورة تامة نهائية، بل يكتمل بعد الحدوث الثالث له ثمّ يُنحَلّ ليحدث تغييرا في البنية للفكر الإنساني¹⁴، بالمقابل كان النّسق عند محمد مفتاح مُختَصرا في قوله: «مهما اختلفت تعريفات النّسق، فإنّه ما كان مؤلفا من جملة من عناصر أو أجزاء مترابط فيما بينها وتتعالق لتكوّن تنظيما هادفا إلى غاية، وهذا التحديد يؤدي إلى نتائج عديدة¹⁴» ويذهب مفتاح إلى عدّ العناصر المتناسقة والمتعلقة فيما بينها هي ما يعطي تشكيلا للنّسق.

غالبية الدراسات السابقة للنّسق جعلته بنية مغلقة، غير أنّ النقد الثقافي جعل للنّسق بعدا آخر يغوص في المضمرات للوصول لماهية نسق معين، والرواية كفن أدبي تُعد أرضا خصبة لهذه الأنساق والمضمرات التي قد تتداخل أو تتنافر وقد تنسجم لتشكّل هذا العمل الروائي، كما تنقل هذه الأنساق رؤى زمان معين وبيئة معينة تختلف حسب تركيبتها

¹⁰ العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهلال د. ط، د. ت، ص 581.

¹¹ ابن منظور، لسان العرب، ص 401.

¹² المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية، عبد العزيز حمودة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، الكويت، ط 1، 1998م، ص 184.

¹³ ينظر جدلية الخفاء والتجلي، كمال أبو ديب، دار المعلمين، بيروت، لبنان، ط 2، 1981م، ص 111.

¹⁴ النّص من القراءة إلى التنظير، محمد مفتاح، شركة النشر والمدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000م، ص 49.

الفكرية والثقافية، وقد اختلفت القراءة للعمل الروائي من منظور النقد الثقافي عما كانت عليه في الطريقة التقليدية والبحث عن الدلالات المباشرة والتّمطية الثابتة في العمل، بل تعدته إلى الاستمتاع بالسرد وتشكيل اندماج افتراضي بين القارئ والعمل الروائي، فيحدث التّشبّس في النّص والغوص في عوالمه انطلاقاً من المتخيل عالي الدّقة للوقوف عن طريقة قراءة تأملية فاحصة تتجاوز عناصر البناء الفني للرواية من شخصيات وأحداث وحيز زمني ومكاني إلى الوقوف على مضمراتها واستخراجها في محاولة لاستنطاق النّص واستخراج ما لم يُصرّح به من بين ما صُرح به بين ثنايا النّص الذي يتحول إلى فضاء مفتوح تتصارع الأنساق الثقافية داخله وتلعب دوراً مهماً فيه .

وحتى نتمكّن من الوصول لتلك المضمرات والغوص فيها كان من الضرورة اللجوء للنقد الثقافي، وقد اخترنا كعينة منه ما تعلق بالذات والوطن والعادات والتقاليد والأعراف بغرض الوصول لنسق الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة، هذه الهوية التي تبلورت وتشكلت عبر الزمن، ولعل أفضل من جسدها الروائي عبد الوهاب عيساوي من خلال عمله الإبداعي "الديوان الإسبرطي".

2- الأنساق الثقافية في رواية الديوان الإسبرطي لعبد الوهاب عيساوي:

1.2- الديوان الإسبرطي بين المتخيل والحقيقة التاريخية:

رواية الديوان الإسبرطي هي الأشهر بين روايات عبد الوهاب عيساوي ذلك أنّها تحصدت على جائزة البوكر للرواية العربية سنة 2020م، وقد سجلت الرواية جوانب خفية من حياة الجزائريين في فترة بعيد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

والحديث عن ربط الرواية بالتاريخ أو جعل الرواية تاريخاً يعد ضرباً من الخيال كون التاريخ في مجمله مجرد جمع للأحداث والوقائع التي حدثت فعلاً وانتهت بغرض توثيقها وربما بغرض تحليلها فيما بعد، غير أنّ الرواية - وإن استمدت بعض أحداثها من الواقع أو التاريخ- لا يمكن أن تعدّ تاريخاً كونها عمل إبداعي بشري يعرض فيه المؤلف تصوّره أو مجموع تصوّراته عن فكرة ما في قالب درامي مشحون بعواطف مختلفة لتصنع عنصر التشويق.

إن حديثنا عن "الديوان الإسبرطي" بوصفه رواية تاريخية تسجل فترة من حياة الجزائريين يجعلنا نطرح السؤال الآتي: هل يمكن أن نعدّ رواية الديوان الإسبرطي حقيقة تاريخية؟ أم هي مجرد متخيل أدبي؟ أم أنّها جمعت بين الأمرين معا؟

بالعودة للرواية ومن قسمها الأول نجد الروائي يبدأ من تاريخ مارس 1833م فيقول: "اثنا عشر عاما انقضت على موت نابوليون، وثلاث سنوات بعد سقوط الجزائر"¹⁵ وهذا السرد الروائي على لسان ديبون* يحيلنا لحقائق تاريخية مُثَبَّتة، فتاريخ وفاة نابليون بونبارت كان في مارس 1821م، كذلك تاريخ الحملة الفرنسية على الجزائر كانت في جويلية 1830م وبذلك يكون فعلا قد انطلق من واقع تاريخي؛ أي ثلاث سنوات منذ احتلال الجزائر واثنتا عشرة سنة من وفاة نابوليون.

وقد كانت الانطلاقة في الرواية من واقع حقيقي يوافق سنة 1833م، لتتوالى الأحداث التاريخية التي جاءت على لسان الشخصيات، ونذكر منها:

- توقيع الاتفاقية بين حاكم الجزائر الداوي حسين وقائد الحملة العسكرية الفرنسية بصفته ممثلا لفرنسا ويظهر ذلك على لسان كافيار الذي يقول: "كم كانت مخزية تلك الوثيقة التي وقّعها بورمون مع الباشا، ما الذي جعله يمنحهم كل تلك المزايا"¹⁶ رغم أن كافيار كان يلوم الحاكم العام للجزائر على بنود الاتفاقية غير أنّه أشار لأشياء وقعت فعلا من توقيع معاهدة بين الطرفين تضمن حقوق الجزائريين.

تنكر الجانب الفرنسي لبنود الاتفاقية الموقعة خاصة في مجال الأملاك والأوقاف وهذا ما ورد ذكره في الرواية على لسان شخصية ابن ميار، حيث ذكر ذلك في مجموع عرائضه التي اشتكى من خلالها تصرفات كافيار الذي استولى على ضيعته وأملاكه وكذا استحواده على الأوقاف وتهديم بعضها وتحويل بعضها إلى ثكنات أو أديرة مسيحية، ومنع الناس من مزاوله معتقداتهم الدينية من ذلك قوله: "وظللنا نشقُ شوارع المحروسة حتى بلغنا المسجد ووجدناه هنالك ينتظر المعاول...نهبوا كل ما فيه، سرقوا منبره، وكتبُ لا يعون منها شيئا،

¹⁵ الديوان الإسبرطي، عبد الوهاب عيساوي، دار ميم للنشر الجزائر، ط 6، 2020، ص 13.

* ديبون أحد أهم الشخصيات الحكائية في رواية الديوان الإسبرطي.

¹⁶ الديوان الإسبرطي، عبد الوهاب عيساوي، مصدر سابق، ص 34.

وألواح الرخام المنقوشة بأسماء الله الحسنى ... ثم ارتفعت المعاول في السماء، وطفقت تهدّ جدرانها»¹⁷ وتم تحويل مسجد كتشاوة إلى كنيسة رغم رفض سكان الجزائر لذلك، لكنّ الحاكم العسكري أمر بتنفيذ الحكم، ونتج عن ذلك عدد كبير من الشهداء سالت دماؤهم وسميت الساحة بعد الاستقلال باسمهم (ساحة الشهداء)، وهذا ابن ميار يذكر ذلك بحسرة كبيرة فيقول: «ولم يختلف الأمر مع جامع كتشاوة. علّت ضجة الناس ما إن سمعوا قرار تحويله إلى كنيسة، علّمهم مثذنة جامع السيدة أنّهم سيزولون إن لم ينتفضوا.. واعتصم المصلون به يرفضون مغادرته، وما كان من الجنود إلّا أنّ اقتحموه.. حطموا أبواب المسجد وأخرجوا الناس من داخله بالقوة.. ثم أطلقوا عليهم الرصاص»¹⁸ ذكر الشخصيات التاريخية: من ذلك شخصية الضابط لويس ديبون Louis Dupont أحد الضباط الذين شاركوا في الحملة الفرنسية على الجزائر وهو صحفي في جريدة لو سيمافور دو مرساي حيث سجل مراسلا لحملة 1830 التي نشرت في الجريدة.¹⁹

-استغلال عظام الموتى في معامل السكر، وقد ورد ذلك في الرواية في قسمها الأول في حديث دار بين ديبون واحد الأطباء جاء فيه «- يقال إنّ الباخرة تحمل عظاما بشرية؟ - أهي لجنود أوصوا بذلك؟

- لا. بل لمصانع السكر. يقال إنّها تستعمل لتبييضه»²⁰، إضافة إلى كل هذه الأحداث توجد شخصيات وردت في الرواية موجودة في الحقيقة في ذلك التاريخ، ونذكر منها شخصية المزوار وهي وظيفة عثمانية تجمع بين المنصب الإداري والمنصب العسكري، ويتعلق الجانب العسكري منه في حماية الجانب الأمني والشؤون الداخلية في المدينة، وقد ورد ذلك في مواضع عدة من الرواية على لسان السلاوي، وشخصية المزوار أو من ينتمون إلى الفئة ذاتها في الغالب تعد يد السلطة العثمانية بين الأهالي، وتقابلها شخصية الوقاف التي عرفت أيام الثورة التحريرية، وهي شخصية تستخدمها السلطات الاستعمارية في طرح أوامرها على الشعب الذي يجهل لغة ونية المحتل، وغالبا ما يتحدث المزوار باللغة التركية والعربية .

¹⁷ المصدر نفسه، ص 277.

¹⁸ المصدر نفسه، ص 278.

¹⁹ المصدر نفسه، ص 245.

²⁰ الديوان الإسرطي، ص 16

أيضا ما جاء كحقيقة تاريخية ثابتة ذكر الأماكن كالجرائر العاصمة التي يطلق عليها ابن مياروالجرائريون اسم المحروسة، أيضا ذكر وادي الحراش والقصة، وطولون، وشوارع باريس، وشوارع القصة وكلها تسميات لأماكن وردت في الحقيقة.

انطلاقا مما سبق، هل يمكن عدّ الرواية تاريخا صرفا؟ وفي أيّ مجال يمكن

تصنيفها؟

رغم وجود وقائع حقيقية وتتالي أحداث مرّت فعلا غير أنّ الرواية استمدت مادها من التاريخ وأضفى صاحبها أحداثا من المخيل ونذكر من ذلك التسمية التي يحلو لكافيار تسمية العاصمة بها "إسبرطة"، رغم أنّ التسمية تعود لمدينة تقع جنوب اليونان غير أنّ الروائي استخدمها على لسان كافيار الذي بدوره يُعدّ شخصية ليست حقيقية، بل هي من مخيال الكاتب ترمز لتجبر القوة الاستدمارية الفرنسية، فإسبرطة الحقيقية كانت ترمز للقوة العسكرية والتحصين المحكم، لذا استخدمها كافيار كدلالة على إحكام القبضة على مدينة الجرائر أو كما يحلو لابن ميار تسميتها بالمحروسة، وكلتا التسميتين تتفقان في معنى واحد هو التحصين العسكري، وهذا كافيار يبين قوة تحصين الجرائر وصعوبة الولوج إليها فيقول: "من أيّ الأبواب سنعبّر إلى إسبرطة؟ حلم طويل وديوان من القصص لم ينته بعد"²¹ أيضا من الشخصيات التي جاءت على مستوى المتخيل الإبداعي شخصية حمة السلاوي رغم عدم وجود الشخصية في التاريخ الحقيقي غير أنّها كانت من بين الأركان الخمسة في الرواية التي جاءت برواة متعددين، عكس ما عهدناه في الرواية الكلاسيكية التي تقوم على راو منفرد. وشخصية حمة السلاوي توحى من البداية بأنها ذات طابع شعبي؛ لأنّ تسمية حمة في حد ذاتها تعود لاسم محمد أو أحمد في طبقات المجتمع الجزائري البسيط، أيضا شخصية حمة السلاوي تدل على التنوع العرقي في المجتمع الجزائري، فالسلاوي نسبة لمدينة سلا وهي إحدى المدن قرب الرباط، وهذا يدل على أن مدينة الجرائر العاصمة كانت تحمل إلى جانب الجزائريين والعثمانيين والمورسكيين بعضا من أفراد مغربنا العربي الكبير، إضافة لعدد كبير من الشخصيات التي أوردتها الروائي بين الحقيقة والمتخيل كشخصية حمدان خوجة التي اختفت في شخصية ابن ميار ودوجة ولالة سعدية زوجة ابن ميار وغيرهم.

²¹ الديوان الإسبرطي، ص 333.

وخلاصة القول حول الديوان الإسبرطي بين المتخيل والحقيقة التاريخية، يمكن الوصول لنتيجة عامة هو أنّ الكاتب انطلق من التاريخ لوصف مجتمع المحروسة الذي يمثل الجزائر وتنوع الفئات السكانية فيه في ظل غياب التوثيق حول السنوات الأولى من احتلال مدينة الجزائر. وأظهر الكاتب ضعف السلطة الحاكمة في ذلك الوقت. وكشف عن الخيانات والتخاذل الذي كان سببا في احتلال بقية الجزائر.

2.2 نسق الهوية في رواية الديوان الإسبرطي لعبد الوهاب عيساوي:

يُعدّ نسق الهوية من أبرز الأنساق الثقافية التي تميز الرواية التاريخية الجديدة، ويمكن اعتبار رواية الديوان الإسبرطي من الروايات التاريخية بامتياز، وقد أشرنا سابقا أن عبد الوهاب عيساوي انطلق من التاريخ ليقدم لنا روايته هذه. وسنحاول الوقوف على نسق الهوية انطلاقا مما سبق.

• مكونات نسق الهوية في الديوان الإسبرطي:

تبدو الهوية غير ثابتة الملامح ومتنازع عليها من قبل قوى عديدة ذات أبعاد شكّلت فيها الأعراق المتواجدة فيها دورا مهما ونذكر من ذلك:

- البعد الجزائري المحلي: يمثل غالبية المجتمع في المحروسة، وهو بدوره انقسم بين جزائريين أصليين (سكان شمال إفريقية) الذي تمثله شخصية دوجة وميمون وجماعة المورسكيين، أو كما ورد في الرواية بالمرور الذين يخشون من فقد أرض الجزائر كما فقدوا أرض الأندلس سابقا، فهم في صراع داخلي يمثلته خوف شديد، ولم يخصهم الكاتب بصوت مثلما خص بقية الأعراق. وهذا حمّة السلاوي يعكس مدى تشبّثه بالأرض إذ يقول: «هذه الأرض لنا، نشأنا على ترابها وشربنا من عيونها، فكيف يأتي الغريب ليحدثنا عن المدينة»²²، أيضا ما ورد عن ابن ميار الذي ربط الهوية بالمكان كما ألفه ذاكرة تحسره على ما أحدثته التحولات الاستعمارية في الذاكرة الجمعية فيقول: «كنا نعرف الأزقة بأسمائها القديمة ووجوه الناس لم تتبدل إلّا حين وطئت أقدام الغزاة الميناء»²³ ويمكن القول إنّ هذا البعد

²² الديوان الإسبرطي، ص 147.

²³ المصدر نفسه، ص 164.

يعبر عن الهوية الشعبية القائمة على التمسك باللغة العربية والدين الإسلامي واحترام الأوقاف والأضرحة والشيوخ.

- البعد العثماني التركي: ، يمثل بقايا العثمانيين بعد سقوط الجزائر ويمثله في الرواية شخصيات عديدة منها ابن ميار، والمزوار، والباشا، ورجال اليولداش وهم من الانكشارية، يقول عنهم حمة السلاوي: "كان جنود اليولداش مسرعين خلفي، ولكنني لم أكن لأتوقف، فلا يعرف الانكشارية الرحمة.²⁴" وإن كان هذا البعد العثماني يمثل الجانب السياسي ويجمع البعد الديني من خلال ربط الجزائر بالخلافة العثمانية غير أنه أظهر فسادة في أواخر أيامه قبل احتلال الجزائر.

- البعد المغاربي: يمثله شخصية أساسية في الرواية وهي شخصية حمة السلاوي فالتسمية في حد ذاتها تشير لنسبه لمدينة سلا، وأيضا نجده قد صرح بذلك في صراعه مع جنود الانكشارية فهو دائم الاصطدام بهم، من ذلك قوله: "كانوا يتصايحون خلفي بلكنتهم: اقبضوا عليه.. فلا يعرف الانكشارية الرحمة حينما يتعلق الأمر بنا نحن المغاربة²⁵". وهذا البعد يربط الهوية الجزائرية بإقليمها المغاربي الكبير، فسكان الجزائر وسكان المغرب العربي مثلما جمعتهم الجغرافيا المكانية في الشمال الغربي من إفريقيا، فاشتركوا في العرق ذاته، ومرت عليهم أحداث التاريخ من استعمار ثلاثي لبلاد المغرب والفتح الإسلامي على يد عقبة بن نافع وصولا للاستعمار الفرنسي، فهم يشكلون لحمة واحدة جمعتها العادات والتقاليد والأعراف نفسها، كذلك جمعها المصير المشترك.

- البعد الغربي الدخيل على الهوية الجزائرية: يمثله التواجد الفرنسي في محاولة لفرض هوية الاستعمار الفرنسي على الجزائريين، ويظهر ذلك في شخصية ديبون ذلك المراسل الصحفي الذي يحاول الاهتمام بشؤون الجزائريين من خلال قضية سرقة عظام

²⁴ المصدر نفسه، ص 63.

²⁵ الديوان الإسرطي، ص 63.

الموتى من المقابر وإخبار الرأي العام عن ذلك، فهو يحاول تمرير خطابه التمديني دون التنديد بالاحتلال، وهذا ليس غريبا عليه، فهو كان أحد الجنود في الحملة الفرنسية.

• تشكيل الهوية والصراع عليها:

تتشكل الهوية من إرادة بشرية جمعها تاريخ واحد وأرض واحدة وأفراح وأتراح ويمكن اعتبار الشعور بالهوية هو "تعبير عن إحساس بالمشاركة، إحساس بالشعور بالتجذر، فالإنسان يعيش في محيط جغرافي مألوف في علاقات واهبة للأمن، ويرتبط الإنسان مع الآخرين"²⁶ لذا نجد السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل الهوية ترتبط بالعرق الواحد؟ أو تعدد الأصوات داخل مجتمع واحد ربطته إرادة واحدة؟

في الرواية يتشكل نسق الهوية انطلاقا من تعدد أصوات في الإشارة من الروائي على التعدد العرقي يمثلها الرواة الخمسة للرواية: ديبون، وكوافيار، وابن الميَّار، وحمة

²⁶ البحث عن الهوية، الهوية وتشتتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله، بيتر كوزنون، تر: سامر جميل رضوان، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية 2010م، ط1، ص111.

السللاوي، ودوجة. أيضا الشخصيات العثمانية كالمزوار وغيره، هذه الأصوات تختلف فيما بينها، غير أنها لا تخرج عن نطاق هوية واحدة جمعها هدف واحد هو الجزائر كلٌّ بمنظوره الخاص، لتشكل بدايات الهوية الموحدة في تشكيل يتمثل في:

- المكان الذي هو مدينة الجزائر، والذي بدوره يحيلنا للجزائر ككل.

- اللغة العربية بشقيها: الفصحى والعامي الذي يبين بدوره مستويات الجزائريين الثقافية والدينية على اعتبار ربط اللغة العربية بالدين الإسلامي. إضافة للتركية والفرنسية التي يجيدها عدد كبير من الجزائريين وكذا بعض للفرنسين والأتراك.

- المرجعية التاريخية: تتمثل في الحكم العثماني قبل الحملة الفرنسية والحكم الفرنسي إضافة للأصوات التي يتزعمها حمة السللاوي التي تدعو للعودة للأصل الجزائري ببعده المغاربي.

وقد نتج عن صراع تشكيل الهوية في الديوان شكل آخر من الصراع للحفاظ على الهوية يتمثل في الصراع القيمي الناتج في الرواية حسب تنوع الشخصيات التي أنتجت هذا الصراع من عدل وفساد وحرية واستعباد. إضافة لاتجاهات هذا الصراع القيمي في الرواية لأنه جزء أساسي من بنيتها، فالهوية لا تتشكل بالثوابت المعروفة من أرض وتاريخ وأفراد وسياسة معينة فحسب، بل تتعداه لقيم تتنازع المجتمع في تلك الأرض، والصراع القيمي في الرواية يأخذ عدة مجالات أهمها:

- الأخلاقية والدينية: تتمثل هذه القيمة في تمسك الجزائريين بمعتقداتهم الدينية من ذلك ما ورد في وثيقة تلك المعاهدة التي طالب من خلالها الجزائريون بمنح حرية المعتقد والحفاظ على الأوقاف، كذلك ما نتج من فوضى عارمة وتجمع الناس عند مسجد السيدة ومسجد كتشاوة والدفاع عن المقدسات.

من القيم الأخلاقية التمسك بالأخلاق الفاضلة من عدالة وكرم الدفاع عن المظلومين وغيرها تمثلها شخصية "حمة السللاوي" في حين نجد العكس النقيض من ذلك

انحطاط أخلاقي من خلال ما كان يفعله "المزوار" وتشغيل الفتيات في البغاء وسلب حريتهن واستغلالهن أسوأ استغلال، كذلك سعي بعض السكان للنجاة بأنفسهم والحفاظ على ممتلكاتهم من ذلك ما كان من شخصي "المزوار" و "ابن ميار" كما يرصد صاحب الديوان تناقضا دينيا غريبا يكشف عن أخلاق أقل ما يقال عنها أنها سيئة فهي تمثل ازدواج القيم فيقول: "المدينة كانت تصلي ثم تفتح حاناتها بعد العشاء"²⁷

الذكورة والنسوية: تقوم معظم مجتمعاتنا قديما على سطوة الرجل وتحكمه في كل شيء تقريبا من باب أنه المسؤول على أسرته وحيه ومجتمعه، فهو حامي الحمى، وتصبر معظم المجتمعات على تهيش جانب العنصر النسوي، غير أن ذلك لا يمنع من وجود أصوات نسوية تحاول الخروج من هذا النسق المفروض عليها، وفي الرواية يتمثل هذا الصراع بين مجتمع ذكوري يرى المرأة مجرد لعبة أو للترفيه مثل ما يحدث مع "المزوار" و"دوجة" والفتيات، فالمزوار استغل الفتيات الضعيفات من أجل مدخول مادي حين شغلن في مجال البغاء دون رحمة أو اهتمام بالدين والعرف، فهو يجبرهن على العمل في ذلك المكان الذي أعدّه لهذا الغرض، وهذا حمة السلاوي يقدم لنا مشهدا من علاقة المزوار بالفتيات فيقول: "وجه المزوار ما زلت أراه في الحلم واليقظة، يجوب الشوارع، ويقفز من مكان إلى آخر يطارد البغايا، يجرهن من شعورهن، ويعيد من تهرب إلى غرفها"²⁸ مجرد هروبهن دلالة على خرق نسق الخضوع للذكورة وسطوتها.

وقد أورد العيساوي في مواضع كثيرة من الرواية أنماطا متعددة للمرأة بين تصويرها بشكل نمطي في صورة المرأة ربّة البيت التي تسعى لإرضاء زوجها، وتقوم بكل أعمالها المنزلية دون تدمير، بل وتعدّها واجبا مثل شخصية "لالة سعدية" زوجة ابن ميار التي تعودت على خدمة زوجها وطاعته.

من جهة أخرى يظهر التمرد على عالم الذكورة في شخصية دوجة التي لم تمتثل لأوامر المزوار وفرت حين أخذها للباشا. أيضا مشاركة المرأة في الدفاع والمقاومة من أجل

²⁷ الديوان الإسرطي، عبد الوهاب عيساوي، مصدر سابق، ص 231.

²⁸ الديوان الإسرطي، ص 72.

الحفاظ على الأرض والوطن» فقد كانت النساء يرمين الماء خلف الرجال الخارجين إلى القتال لا خوفا بل رجاء أن يعودوا²⁹»

وقد جاء على لسان ابن ميار قوله: «أمي كانت تقول إن الأرض أنثى، تروى بالدم لا بالماء³⁰» في هذا المشهد لابن ميار يشير إلى المقاومة واعتبار الأرض أنثى والحفاظ عليها واجب حتى لو أريقَت في سبيلها الدماء.

- التقليد والحادثة:

يشكل هذا المجال صراعا آخر في الرواية بين الأنا الجزائري والآخر التركي والفرنسي، فالجزائري متمسك بدينه وأداء صلواته وعاداته وتقاليده مقابل عنصر آخر يفرض لغته التركية أو الفرنسية بعدها، كذلك ادعاء الفرنسيين أنهم يريدون جعل المجتمع الجزائري أكثر مدنية من خلال النظام الأوروبي. وقد جاء في حوار جمع ابن ميار وأحد الفرنسيين الذي ادعى أن فرنسا نقلت الحضارة للمحروسة من خلال حملتها التي كان أساسها الغزو ونهب الخيرات فيقول: «قال فرنسي إننا سنعلمكم كيف تبنون مدينة حديثة، فقلت له: وهل المدينة التي ورثناها عن أجدادنا خراب؟³¹»

في إشارة من ابن ميار إلى أن المحروسة كانت مدينة حديثة ذات نظام عمراني راق، لذا استخدم في رده على الفرنسي استفهاما إنكاريا: إذ ليس الاستفسار هو هدفه، نعم هو ينكر أن تكون مدينته خرابا، بل يتعدها إلى التلميح المباشر لنوايا فرنسا الاستغلالية. غير أن التأثير بالغازي القادم لم يكن منعدما، فقد تأثر الوعي الاجتماعي بحداثة الوافد وأعجبهم حياته، بل سعوا لتقليده في نسق الحياة الاجتماعية فأهترهم طريقة اللباس

²⁹ المصدر نفسه، ص 71.

³⁰ المصدر نفسه، ص 209.

³¹ الديوان الإسرطي، ص 157.

وطريقة الاحتفال في الأفراح، وقد جاء هذا المعنى في قول الكاتب: «والناس صاروا يقلدون لباس الجنود الفرنسيين، حتى في أفراحهم، كأنهم يبدلون جلودهم»³²

إن تتبع الصراع القيمي في تشكيل الهوية من خلال الديوان الإسبرطي يجعلنا نقف على صراع يتمثل في مجموعة من الثنائيات: (الدين/المصلحة)، (الأخلاق/ الانحراف)، (الذكورة/النسوية)، (التقليد / الحداثة). وقد نتج عن هذا الصراع صراع آخر ثقافي، فالرواية وضعتنا أمام فضاء عرقي متعدد سكان أصليين أو ما يعرفون بالأهالي ويمثلون مزيج بين العرب والبربر وكذلك الأتراك والاندلسيون(المور) بالإضافة للأوروبيين الذين بدورهم يشكلون عدة جنسيات من إيطاليين واسبان كانوا مقيمين بالأساس يضاف إليهم الغزاة الفرنسيين.

هذا التعدد العرقي جعل الهوية متصارعة ومتداخلة في آن واحد، فهي في حالة اهتزاز كون كل طرف ينظر إليه حسب عرقه ودينه ويمكن أن نمثل لهذا الاهتزاز بأربع شخصيات جسدها تماما وهي:

- حمة السلاوي الذي يمثل البعد المغربي ويرفض أن يتدخل الفرنسيون وحتى الأتراك في هذه الأرض ويعتبر الجزائر حق للمغاربة دون غيرهم فهو يربط الأرض بالعرق الأساسي الذي تشكل من الثنائية جزائري/مغربي.

- ابن ميار تمثل هذه الشخصية ازدواجية بين شخصيتين احداها ظاهرة بسيطة رغم معرفتها وثقافتها وهو ما كان على ظاهر الشخصية ومكانتها بين الناس وبساطتها في أخذ الأمور والتفاف الناس حول هذه الشخصية لكرمها ومساعدة الآخر فهو بذلك يمثل الأهالي والسكان الاصليين وأحد ممثلي الناس في ديوان حاكم الجزائر حسين باشا، ورغم رفضه للاحتلال إلا أن شغله الأهم هو الحفاظ على الممتلكات والأوقاف باعتبارها رمزا دينيا مقدسا لا يجب المساس به فهو يرى أن «حفظ أنفسنا وأموالنا ومساجدنا، أحد شروط المعاهدة»³³.

وبذلك يكون ابن المياري جسد هوية مضطربة بين تصدع داخلي ووجود حقيقي له على أرض المحروسة وهو يمثل الثنائية العرب/الامازيغ فهو صوت الشعب البسيط الذي ينقل معاناة الأهالي الذين لا حيلة لهم فينقل الصورة التي أصابت الناس بمختلف طبقاتهم الاجتماعية

³² المصدر نفسه، ص 246.

³³ الديوان الإسبرطي، ص 211.

في شيء من التحسر فيقول:» تتكاثف الصور من حولي، أرى السلاوي يركض في شوارع المحروسة إبراهيم أغا ينحدر منكسرا عبر الدّرب الذي يشق المقابر. يحيي أغا ونظراته المترجحة بينما كان الیولداس يحیطون به. دوجة في انتظارها..³⁴»

- من جهة آخر تُظهِر شخصية ابن ميار أنها في الحقيقة ما هي إلا شخصية حمدان خوجة التاريخية والموجودة في الحقيقة فهو يمثل المثقف الذي يتجاوز تفكيره مجرد النظر في الخطر الناتج عن الاحتلال الفرنسي الى خطر انحطاط وتأخر المجتمع الذي تسبب فيه الاستعمار من جهة وضعف وانحطاط السلطة العثمانية من جهة أخرى، فهو يلعب دور المصلح الذي كان همه الأول الخروج من نفق الجهل الى نور التطور، وقد أشار صاحب الديوان الإسبرطي إليه ووسمه بأنه متميز في تفكيره فقد «كان مختلفا عن رجال الديوان، لا يرى في الفرنسي شيطانا مطلقا ولا يرى في الاتراك ملائكة. كان يؤمن أنّ خلاص النَّاس يكون بالعلم والمعرفة، ولا يكون بالمدافع وحدها، كان يحلم بإصلاح يعيد للجزائريين كرامتهم.³⁵ ويمثل ابن ميار هنا للثنائية: عرب /أتراك.

³⁴ المصدر نفسه ، ص 204.

³⁵ المصدر نفسه ، ص 347.

الخاتمة:

- أفضت دراسة نسق الهوية في هذه الرواية إلى استخلاص عدة نتائج نذكر منها:
- الهوية الجزائرية من خلال الديوان تجاوزت مفهوم العرق للانتماء للحومة التي تشكل الجزائري بعيدا عن كل المنازعات القومية والعرقية.
 - الهوية أيضا تشكلت انطلاقا من صراع الذات مع التواجد العثماني ثم التواجد الفرنسي.
 - يمثل الدين الإسلامي مرجعا أساسيا للهوية الجماعية في الرواية.
 - تحمل الهوية الجزائرية انطلاقا من الديوان تعددا ثقافيا بين أمازيغ وعرب وأندلسيين وعثمانيين وفرنسيين.
 - الهوية المتوترة في الرواية تنطلق من العنوان وتعدد الأصوات داخلها.
 - الهوية في الرواية متشظية بين الأعراق يجمع بينها الانتماء للأرض من جهة، وإيجاد مكانة منفصلة عن العثمانيين والفرنسيين من جهة أخرى ورفض التبعية.
 - يحاول صاحب الديوان القول بأن الهوية نسق جدلي منفتح لا مغلق لا يمكن اختزاله بالثنائية (نحن/هم)، فالهوية عنده تعكس سعي الجزائري لتحقيق التوازن بين الذات والآخر.

المراجع:

- 01- بطرس البستاني، قاموس محيط المحيط، مكتبة ناشرون، بيروت لبنان، ط جديدة، 1987م.
- 02- عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، دارميم للنشرالجزائر، ط6، 2020، ص13.
- 03- الزبيدي، تاج العروس، ج20، تج عامرأحمد حيدر، دارالكتب العلمية، بيروت لبنان 2004
- 04- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تج محمد العرق سوسي، مؤسسة الرسالة، ط6 دمشق 1998م.
- 05- أحمد بعلبكي، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2013م.
- 06- محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ط1، 2003م.
- 07- سعد البازغي، شرفات للرؤية، العولمة والهوية والتفاعل الثقافي، المركز العربي الثقافي، بيروت لبنان، ط1، 2005م
- 08- عزيز العظمة وآخرون تر: عبد القادرقنيني، المركز العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005.
- 09- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تج: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهلال د.ط، د. ت.
- 10- عبد العزيز حمود، المرايا المحدبة من البنيوية إل التفكيكية، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، الكويت، ط1، 1998م،
- 11- بيتر كوزنون، البحث عن الهوية، الهوية وتشتتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله، تر: سامر جميل رضوان، دار الكتاب الجامعي، العين، الامارات العربية 2010م، ط1.

